السم في الدسم

﴿ لجبران خليل جبران ﴾

* * *

في صباح يوم من ايام الخريف الذهبية التي تظهر شمال لبنان بكل مظاهره العلوية اجتمع سكان قرية تولا حول الكنيسة القائمة في وسط منازلهم يتساءلون ويتبادلون الاراء في سفر فارس الرحال الفجائي الى مكان قصي لا يعلم به غير الله تاركاً عروسته الصبية التي تزوج بها منذ ستة أشهر .

كان فارس الرحال شيخ القرية وزعيمها ، وقد ورث هذه المنزلة عن ابيه وجده . ومع انه لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره فقد كان في شخصيته ما يوعز الاحترام والوقار في قلوب مواطنيه . وعندما اقترن في اواسط الربيع الغابر بسوسان بركات قال الناس — ما اسعده فتى ! فهو قد حصل قبل ان يبلغ الثلاثين على كل ما يتمناه الانسان من السعادة في الحياة الدنيا .

ولكن في ذلك الصباح عندما استيقظ سكان تولا وقيل لهم ان الشيخ فارس قد جمع ما تيسر له من المال وركب فرسه وغادر القرية دون ان يودع نسيباً او صديقاً تعاظمت ظنونهم واخذوا يتساءلون عن الاسباب الخفية التي جعلته ان يتركهم ويترك عروسته ومنزله وحقوله وكرومه

ان الحياة في شمالي لبنان اقرب الى الاشتراكية منها الى كل تعليم آخر ، فالقوم هناك يتساهمون افراح الوجود وشدائده مدفوعين بامیال فطرية وضعية . فاذا ما جاءت الايام بحادث الى قرية ينصرف سكانها بكليتهم الى استقصاء ذلك الحادث حتى تجيء الايام اليهم بامر آخر

تلك هي العوامل التي صرفت سكان تولا عن اعمالهم اليومية فاجتمعوا حول كنيسة مار تولا يتحدثون ويتساءلون ويتبادلون الاراء بسفر فارس الرحال .

وبينما هم على هذه الحالة واذا بالخوري اسطفان كاهن القرية يقترب منهم منحني الرأس منقبض الملامح . فدنوا منه مستطلعين فظل ساكتاً يفرك يداً بيد وبعد هنيهة قال

— لا تسألوني . لا تسألوني . كل ما اعرفه يا ابنائي هو هذا . قرع فارس باب منزلي قبل طلوع الفجر ولما فتحت له وجدته متمسكاً بمقود فرسه وعلى وجهه امارات الحزن الشديد . فسألته مستغرباً عما يريد فقال « جئت لاودعك يا ابتي ، فانا مسافر الى ما وراء البحار ولن اعود الى هذه البلاد وانا حي » ثم وضع في يدي رسالة مختومة باسم صديقه نجيب مالك وطلب الي ان اسلمها اليه يداً بيد . فعل هذا واعتلى فرسه وراح مسرعاً قبل ان استوضح أمره . هذا كل أعرفه . فلا تسألوني الزيادة .

فقال احد الواقفين

— لا شك ان في الرسالة ما ينبئنا عن سبب سفره لان نجيب مالك كان

أعز صديق له في القرية

وقال آخر

— وهل رأيت عروسته يا ابتاه ؟

فاجاب الكاهن

— قد زرتها بعد صلاة الصباح فوجدتها جالسة بقرب النافذة تنظر الى البعيد بعينين زجاجيتين كأنها فقدت ادراكها ولما سألتها هزّت رأسها وقالت «لا أدري . لا أدري . » ثم طفقت تبكي وتنتحب كالاطفال .

ولم ينتهِ الكاهن من كلامه الا وذعر القوم حوله لطلق بندقية جاء من الوجهة الشرقية من القرية . ثم تبعه صراخ امرأة جارح ارتعشت له دقائق الفضاء . فبهت القرويون دقيقة ثم تراكضوا نساءً ورجالاً وعلى وجه كل واحد منهم برقع من الخوف والتشاؤم . ولما بلغوا البستان الذي يحيط بمنزل فارس الرحال شاهدوا هنالك منظراً اجمد الدم في عروقهم والفكرة في رؤوسهم — رأوا نجيب مالك منطرحاً على التراب والنجيع يتدفق من امعائه . وعلى مقربة منه سوسان زوجة فارس الرحال تنبش شعرها وتمزق اثوابها وتصرخ متوجعة — « قد قتل نفسه . قد اطلق البندقية في صدره . »

فبهت القوم كأن اكف القضاء غير المنظورة قد قبضت على ارواحهم . ولما اقترب الكاهن من الصريع وجد في يمينه الرسالة التي كان قد سلمه اياها في ذلك الصباح . وقد قبض عليها بشدة كأنه يريد ان يجعلها جزءاً من اصابعه . فتناولها الكاهن ووضعها في جيبه دون ان يراه أحد ثم تراجع الى

الورآء لاطماً وجهه ·

وحمـل القوم جثة المنتحر الى بيت والدته المسكينة التي لم ترَ جثة وحيدها حتى فقدت عقلها ·

واهتمَّ بعض النسآء بزوجة فارس الرحال فاقتادوها الى منزلها بين حية وميتـة ·

· · ·

ولما بلغ الخوري اسطفان منزله اوصد الباب ووضع النظارات على عينيه متشلاً الرسالة التي وجدها في يد نجيب مالك وبصوت مرتعش أخذ يقرأ —

«أخي نجيب

انا تارك هذه القرية لان وجودي فيها يجلب التعاسة لك ولزوجتي ولي ايضاً · انا اعلم بانك شريف النفس تترفع عن خيانة صديقك وجارك ؛ واعلم ان زوجتي سوسان طاهرة الذيل ؛ ولكنني اعلم في الوقت نفسه ان الحب الذي يضم قلبك وقلبها هو أمر فوق ارادتكما · فانت لا تستطيع ازالته كما انك لا تقدر ان توقف مجاري نهر قادیشا · لقد كنت صديقاً لي يا نجيب مذ كنا صبيين نلعب في الحقول وفي ساحة الكنيسة · وانت لم تزل صديقي امام الله · وارجوك ان تفتكر بي في المستقبل مثلما كنت تفتكر بي في الماضي · واذا التقيت بسوسان غداً أو بعده قل لها اني احبها وأرحمها · وقل لها ايضاً اني كنت اذوب شفقة عندما كنت استيقظ في سكينة الليل واراها راكعة امام صورة يسوع تبكي وتنتحب وتجلد صدرها · ليس اصعب من حياة

المرأة التي تجد نفسها واقفة بين رجل يحبها ورجل تحبه . وسوسان المسكينة كانت في حرب دائم . كانت تريد ان تقوم بواجباتها الزوجية ولكنها لم تكن قادرة عَلَى قتل عواطفها . اما انا فمسافر الى مكان بعيد ولن أعود الى هذه الديار لاني لا اريد ان اكون حجر عثرة في سبيل سعادتكما . وفي الختام ارجوك يا اخي أن تبقى مخلصاً لسوسان وان تحافظ عليها حتى النهاية لانها قد ضحت كل شيء من اجلك . فهي تستحق كل ما يستطيع الرجل ان يقدم للمرأة . ابقَ يا نجيب كما عهدتك شريف القلب كبير النفس والله يحفظك

لاخيك

فارس الرحال

ولما انتهى الخوري اسطفان من قراءة الرسالة طواها واعادها الى جيبه وجلس بقرب النافذة ينظر الى الوادي البعيد وعَلَى وجهه المتجمد امارات التفكر العميق .

ولكن لم تمر دقيقة حتى انتصب فجأة عَلَى قدميه كأنه وجد بين ثنايا افكاره سراً دقيقاً هائلاً محجوباً بالظواهر ملتفاً بالسطحيات . فهتف صارخاً — ما اكثر دهاءك يا فارس الرحال ، فقد عرفت كيف تقتل ابن مالك وتبقى بريئاً من دمه . قد بعثت اليه بالسم ممزوجاً بالعسل . قد بعثت اليه بالسيف ملتفاً بالحرير . قد بعثت اليه الموت طي الرسالة . فعندما صوب بندقيته الى صدره كانت يدك قابضة عَلَى يده وارادتك محيطة بارادته ... أواه ما اكثر دهاءك يا فارس الرحال ...

وعاد الخوري بولس فجلس على المقعد هازاً رأسه ممشطاً لحيته باصابعه مبتسماً ابتسامات ذات معانٍ أشد هولاً من المأساة . وبعد هنيهة تناول كتاباً من خزانة قريبة واخذ يتلو بعض موشحات القديس افرام السرياني وهو يرفع عينيه بين الآونة والاخرى ليسمع صراخ النساء آتياً من قلب القرية .